كتاب الشباب

اختطاف



قصص

أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان



اختطاف

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

اختطاف .ـ الرياض.

٣٢ص، ١٤ X ٢١ سم (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك: ٥ـ ٢٣٠ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ـ القصص البوليسية العربية أـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٨١٣,٠٨٧٢ ١٧/٠١٣٧

ردمك: ٥ـ ٢٣٠ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٧/٠١٣٧

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

1

قالَ أحمدُ لجعفرٍ، وهو يمسحُ الأفقَ ببصرِهِ من فوقِ الهَضْبة العالية المشرفة على المحيط :

- هذا يومٌ مثاليٌّ للتَّحليقِ المجنَّح .

ورَفَعَ جعفرٌ عَيْنيه عن جَنَاحه الملوَّنِ ونظر إليه وقال :

- الرِّيحُ قويَّة نَوْعًا ما .

- سَتُساعِدُك على الارتفاع أكثر والتَّحليقِ أطولَ مدَّة .

وعَادَ أحمد يَمْسَحُ بعينيهِ صفحـةَ المحيطِ الأطلسيِّ الذي كان يملأُ الأفق الغربيَّ بأسْـره .

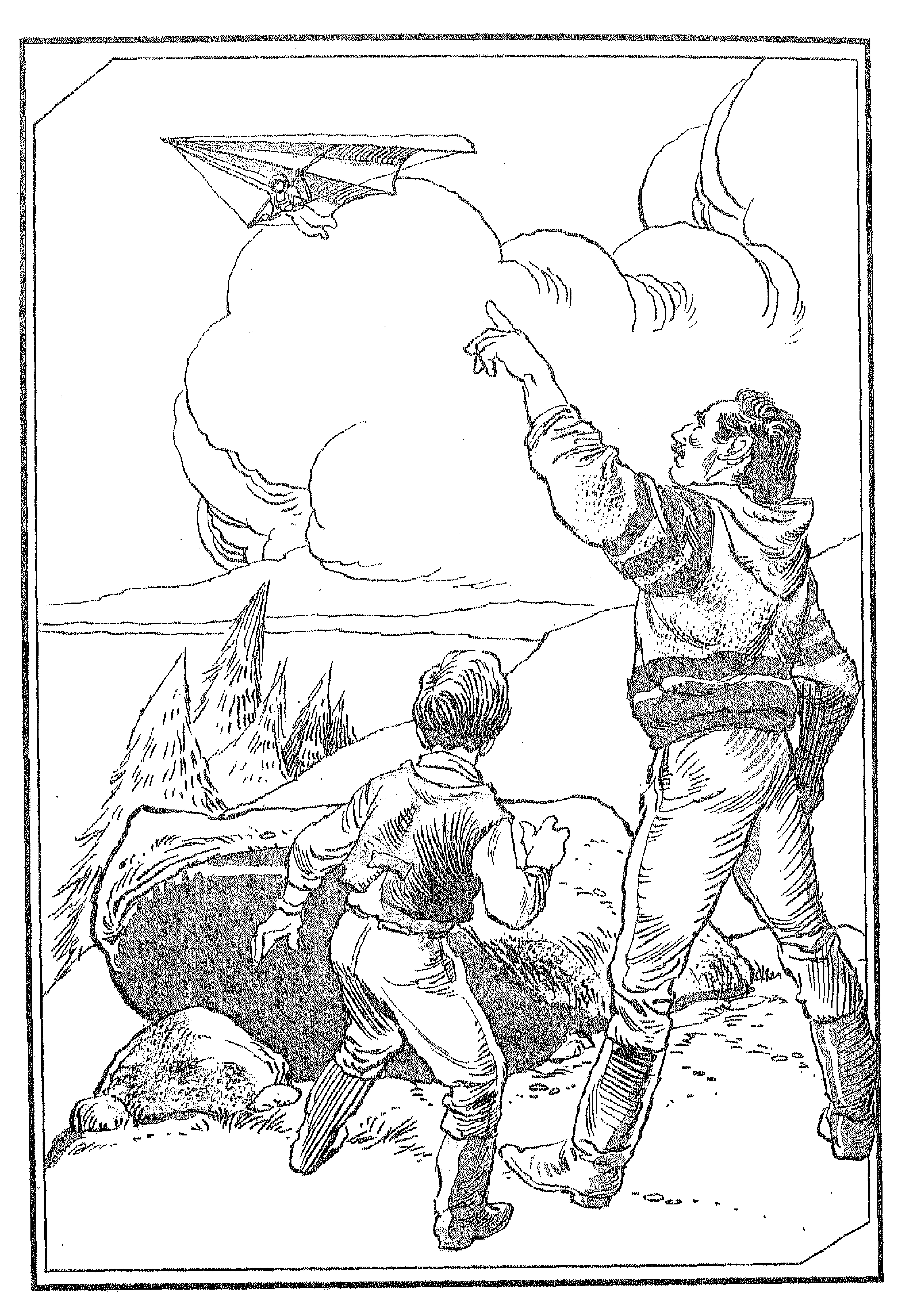
2

ولَوْلا بِساطٌ من ذهبِ الشَّمسِ المائلـة إلى الغروبِ كان يَمتدُّ من فـوقِ رؤوسِ الأمواجِ إلى حفـافِ الأفقِ، لرأَى أحمدُ مِنظـارَ غوَّاصـةٍ سوداءَ، يشقُّ صَفْحة الماءِ، لينظر إلى قمـة الهَضْبة التي يقفون عليها.

كان قائدُ الغـوَّاصة ممسكًا بمِقْبَضَـي المنظـار يَمْسَحُ بِهِ الأفق المحيط به؛ ليتأكد من عدم اقترابِ أَيَّة باخرةٍ أو طائرةٍ تكشفُ مكانه.

وعلى مائدةٍ إلى جـانبه كـانت تَنْتَشِرُ صورٌ مكبرةٌ لجعفـرٍ وهو يحلِّق بجناحه الطائر، ثم له وحده من عدة جوانب.

وركز المنظارَ على قمـة الهضبة، وبقي يُراقبُ مـا يجري فوقها من حـركةٍ، وقـد نسيَ أنَّه داخلَ بطنِ تلك السَّمكـةِ الحديديَّـة العائمة.



3

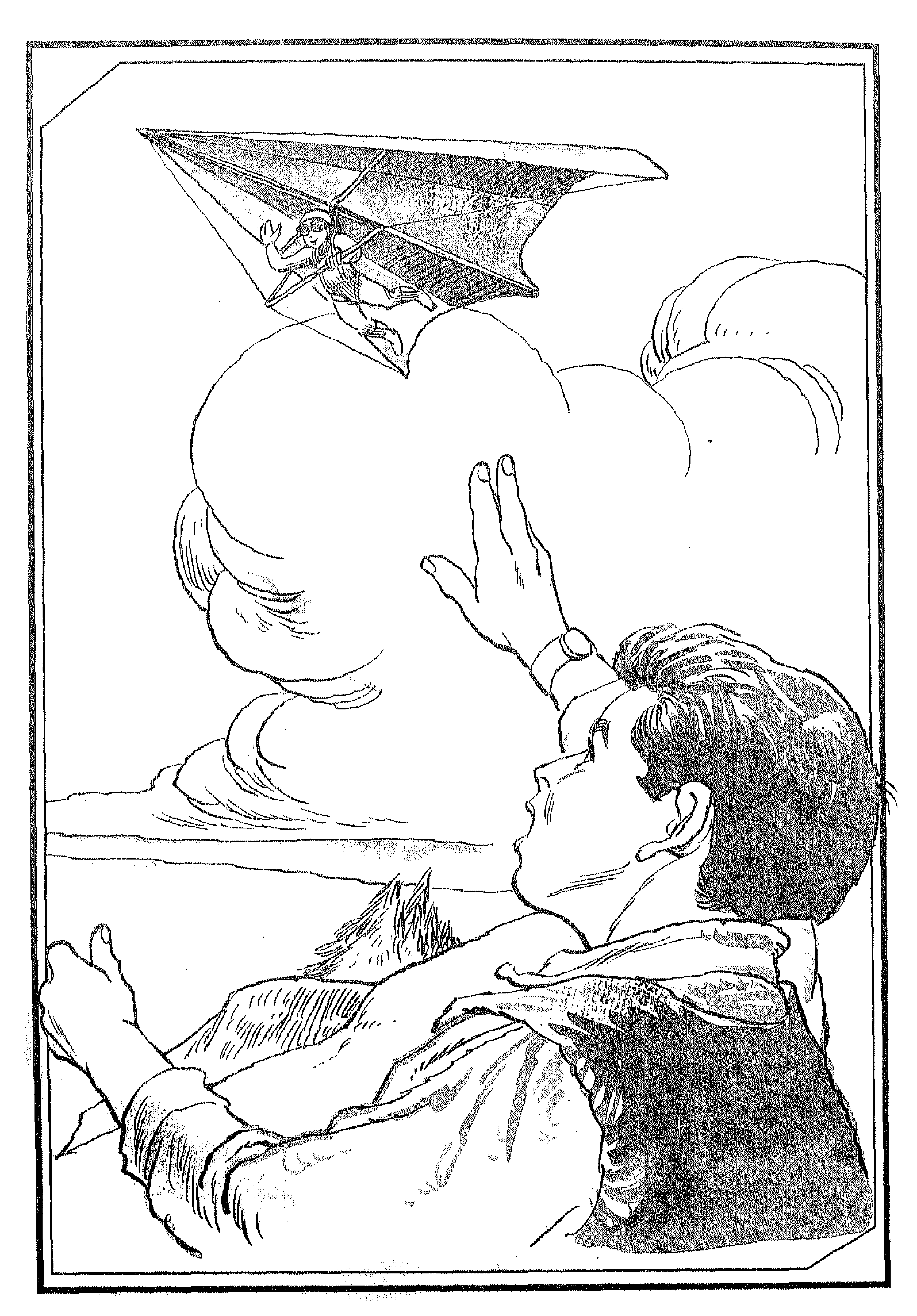
وعاد جعفـرٌ إلى تركيـبِ أجزاء جناحـه الطَّائر التـي جاء بها مفكَّكة في السَّيارة. كانَ قلبهُ يَـدُقُّ من الفَرْحةِ والحَماسِ لقُرْبِ تحليقه في الفضاء. . .

ووقفَ المُدرِّبُ على رَأسـهِ ، فاخْتبَر الجنـاحَ بجميعِ أجـزائهِ، ورفع إبهامَهُ مُوافقًا:

- أوكي. . . تمامٌ !

لم تكُنْ هـذه أولَ مــرة يطير فيهـا جَعْفَــرٌ، فقـد مَضَى على تـدريبـهِ ثـلاثةُ أسـابيعَ، وأصبح مَـاهِـرًا في اسْتعمالِ الجنـاحِ، والسَّبْحِ به في الفضـاءِ، فوق الشاطئِ الـرَّمْلي الواسع، حتَّى إنّ زملاءه بدأوا يُنادونه «جعفرًا الطيارَ».

وسـاعــدهُ أحمدُ على الـدُّخـول تَحْتَ الجنـاحِ، والإمْســاكِ بالمِقْبَضِ.



ووقف هـو بعيدًا عن حِفَـافِ[1] الهضْبةِ التي كـانت تنتهي فجأةً بِجُرْفٍ[2] منحدرٍ ينزل إلى رمال الشاطئ.

وملأتِ الرِّيحُ الجناحَ فصار خفيفًا في يَدَيْه.

وَفَسَحَ لـه المدرِّبُ المَدْرجَ بتصْفيرةٍ من صفَّـارتــه، فـانْـدفَعَ يجْري نحو حِفـاف الجُرْفِ رافعًا مقـدمةَ الجنـاح قليلاً إلى فَـوْقُ لينطلقَ محلِّقًا في الفَضَاءِ...

وَرَفعتْهُ الـرِّيحُ عَالياً فـركبَهَا نَحْوَ البحـرِ... وكلَّما اندفع في اتجاهها أسرعَ وارتفعَ أكثر...

ولما صار فوقَ الأمواجِ، انحرفَ إلى اليسارِ في دائرةٍ وَاسِعَةٍ، فحلَّقَ فوق السَّـابحين الذين كانوا ينتشرون على طـولِ «شاطئِ الأممِ»، ثم عاد فَحَامَ[3] فوق جماعَتِـه التي كانت تُلـوِّحُ له من بين الأجنحــة المُلـوَّنَــة الجاثمــة[4] عَلى الأرضِ والسَّيـاراتِ الرِّياضيةِ العارية...

---

(١) الحِفَافُ: جوانب الهضبة.

(٢) الجرْفُ: الوادي إذا حفر الماء في أسفله شقًّا.

(٣) حَامَ: دار حول الشيء.

(٤) الجاثمة: المستقرة.

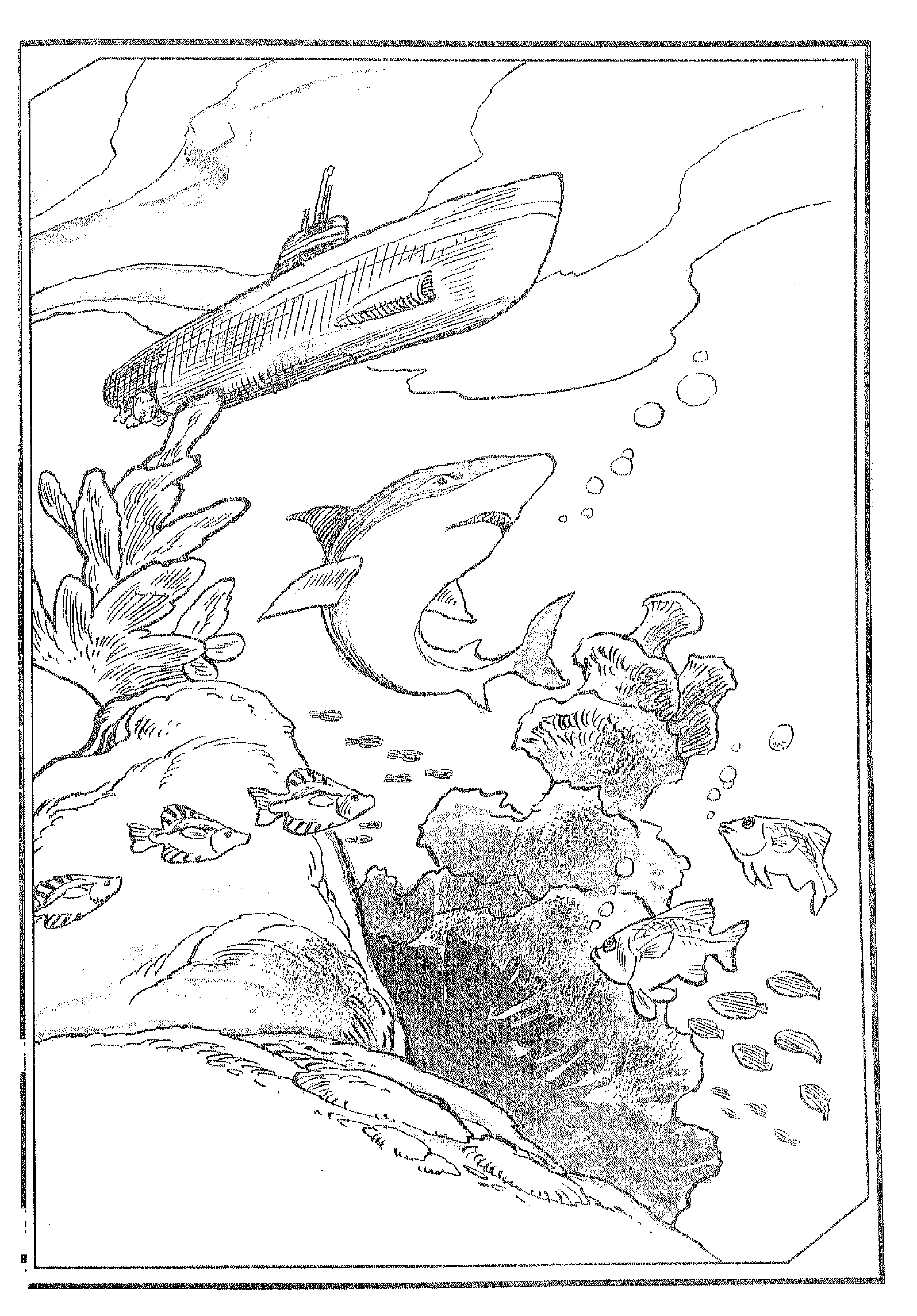
4

وفي داخلِ الغَـوَّاصـة أعْطَى القـائدُ الإشـارةَ إلى ضـابطِ اللاَّسِلْكي، فجلس هذا يُرْسِلُ برْقيَّةً مشفَّرةً[1] مُسْتَعْجَلَة.

ومن بينِ أطْـلالِ مـدينـة «المَهْـديَّةِ» الأثـريَّـة قَـامَتْ طـائرةٌ عموديَّة خَضْراء اللّـون، بدون أرقامٍ ولا علامـاتٍ مميزةٍ، عَبَرَتْ سـورَ المدينـة، ونـزلتْ من فـوقِ الهضبـةِ إلى البُحيرةِ، حيث طَارتْ قريبـةً من الماء، وعبرتْ طريقَ السياراتِ، واخْتَفَتْ بين التِّلال تكادُ تلمسُ عَجَلاتُها رُؤوسَ الأشجارِ.

---

(١) مشفَّرة: رسـالة مشفـرة أي برموز، يستعملهـا فريق من النـاس للتفاهم السري فيما بينهم، وتستخدم تلك الرسائل في البرق وكذلك في الجيوش.



5

وكان جَعْفرٌ يُحِسُّ بالـرِّيح القادمة من المحيطِ الأطلسي بَارِدةً على وجههِ وأصابعِ يديـهِ . . . ولكنَّه كان يشعُرُ بنشوةٍ وانتعاشٍ عظيمين . . .

ووجَّهَ جنـاحَهُ إلى أسفلَ ، فَسَبَـحَ بسرْعةٍ فَـوْقَ أحْقافِ (١) الرِّمالِ الصَّافية .

وتـوقَّف العمالُ الـذين كانـوا يمـلأُون الشـاحناتِ بـالـرَّملِ لينظُروا إليه ، ثمَّ عادُوا إلى مجارِفِهم .

وخَطَرتْ ببـالهِ فِكْـرةٌ ، فرفـع مقدمـةَ الجناح قليـلاً ، فحمله الهواءُ عـاليًـا . . . وانحرف إلى اليسـار ، وسبح بسرْعـة الـرِّيح ، وركبهـا سـائرًا في اتجاهِهَـا نَحْـوَ الشرقِ طليقَ الجسمِ ، ملْتصِقَ السَّاقين . . .

وابتَعَدَ عن هَضْبة أصدقائه العَـارية ، وقصَدَ الهضْبةَ المُجاوِرَةَ لَهَا المَكْسُوَّة بغَـابةٍ كثيفةٍ ، وحَـامَ فوْقَهـا ، وعيُونُ رفاقِـهِ مشْدودَةٌ

---

(١) أحقاف : الحِقْفُ : ما استطال واعوج من الرمل .

إليـه. هـذه ثالثُ مـرَّةٍ يبتعـدُ فيهَـا عن مكانِ انطـلاقـه، رغمَ معارضة مدرِّبه . . . ولكنّه كـان يعودُ كلَّ مرّة سالِمًا. أمَّا اليومَ، فقد كانت شِدَّةُ الرِّيحِ تدْعُو للقلق.

ورأوْهُ جميعًـا يهبطُ بسُـرْعةٍ ومهـارةٍ، ويختفِي وراء الهضْبـةِ. وانتقلتْ عُيونهُم إلى جانبِ الهضْبَةِ الأخرى حيثُ توَقَّعُوا ظُهُورَهُ.

ومـرَّت بضعُ ثـوانٍ على اختفـائه . . . وظهـر القلقُ أولاً على وجـه أحمدَ فاقتربَ من المدرِّب الـذي كان هـو الآخـرُ ينظـر إلى جانب الهضبة مستبطئًا خـروجَ جعفرٍ، ومغلّفًا قلقـه بابتسَـامةٍ هادئة.

لم تكنْ هـذه أولَ مرَّة يمارس فيهـا جعفـرٌ خُـدْعَتَهُ هـذه على زملائه. فقـد كان يوهُمُهمْ أنـه سيدور حَـوْل الهضبةِ ويخرجُ مِنَ النَّاحيـة الأخرى، ولكنّه حَالمَا يختفي عنْ أنظـارهم ينحرِفُ عن اتجاهـهِ، ويـدُور دَوْرتيْن أو ثلاثـًا خلفَ الهضبـة، أو يَتعلَّقُ في الهواءِ مُـوازنًا نفسـه فوق تيَّـار الهواءِ بضْعَ دقائق. وحين يتأكَّـدُ من أنهم قلِقُـوا عَلَيْه جـدًّا يَسْبَحُ عَـائدًا من الاتجاه نفسه الـذي اختفى فيه ويخرج بين هُتافاتِ رفاقه وتصفيقاتِ إعجَابهِمْ!

ولكنَّ اختفاءَهُ طَـالَ هذه المرة، واختفت الابتسامـةُ من وجهِ المدرِّبِ. وضغطتْ أصـابعُ أحمدَ على ذراعـه، فَـربت على يـده مُطَمْئِنًا، ثم انحنى فدخل تحت جناحه وقفز من فوق الجُرْفِ، وركِبَ الـرِّيحَ. ومـا كـاد يـرتفعُ حتَّى انـدفع بكلِّ قـواه نحـو الهَضْبَةِ السَّوْداء.

وركب أحمدُ وجميع زمـلائه سيـاراتهم وانطلقـوا متَّجهينَ إلى أقْربِ طريقٍ جبليٍّ يؤدِّي إلى الوجهِ الشرقي للهَضْبَة.

وكـان قلبُ المدرِّب يـدقُّ بعنفٍ.. كـان خـائفًـا أن يكـون جعفـرٌ قـد أُصِيبَ بسوء، أو يكـون دخل في دوَّامـة من النـوعِ الذي يتكون خلـف الهضابِ المواجهة للعواصف، فَفَقَـدَ توازنه وسقط!

وَطَـار فـوق الهَضْبَة حتى لا يَقَعَ في الفخِّ نفسـه... وحـوَّمَ فوقهـا فاحصًا الغابـة الكثيفة الممتدة على سَفْحِهَـا دون أن يرَى لجعفرٍ أثرًا...

وتأكَّدت مخاوفهُ! لا بـدَّ أنه سقط واختفى بين الأشجار... وبدأ يبحث عن مَهْبِطٍ قـريبٍ لينزلَ عليـه، ويُسْرِعَ إلى إسعاف

جعفرٍ. . . وبصعوبـة استطاع النزولَ أمام كُوخِ حـارسِ الغابة المهجورِ على قمّـة الهَضْبَة، وتـرك جناحـه هناك، وأسرع نـازلاً ينادي باسم جعفر بين الأشجارِ.

وسمِعَـهُ الآخرون الـذين كانـوا وصلـوا بسياراتهم، فأسْرعـوا نحـوه. وحين التقـوا نظَّموا عمليـة تمشيط للغـابـة عن طـريق السيَّارات الـواصل بين مَدينتَيِ «القنيطرة» و«الـرِّباط». وانتشروا يبحثـون وينـادون بـاسم جعفـر حتى هبط الليلُ، ولا أثـرَ لجعفر. . .

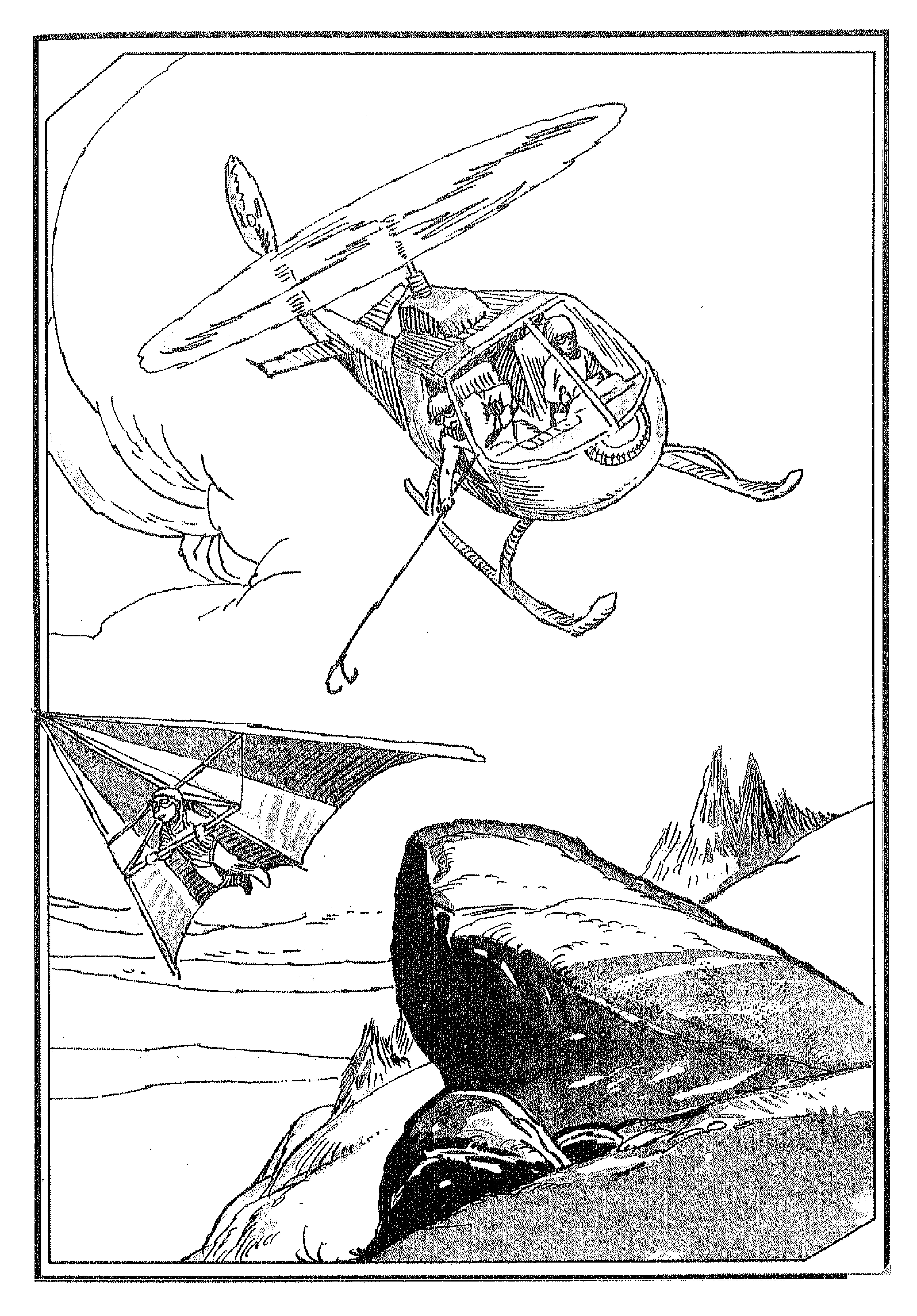
6

أمَّا ما حـدَثَ لجعفرٍ فقد كان غـريبًا وفريدًا مـن نوعهِ . . . فقـد اختطفتـهُ الطـائرةُ العموديـة بمجـرَّدِ اختفـائهِ عن أنظـار زملائه وراء الهضْبة . . .

فـاجأهُ مَنْظرُهَـا وهي واقفـةٌ وراءَ القِمَّة، وهـديرُ مُـحَرِّكِهَا الذي لَمْ يكُنْ يسمعه لذهابه مع الرِّيح الغربيَّةِ القَويَّة .

وحاولَ تفاديها والهبوطَ نحـوَ الوادي العميق، ولكنَّها لحِقَتْ بـه، وطارتْ فـوقـهُ مباشرةً فأحسَّ في البـدايـة كأنّها تدفعـه إلى أسفل . . . وكـاد يَفْقدُ تـوازُنَه . . . وبعد لحظـةٍ من الفـزَعِ بدأ يُحسُّ كَأنها تمتصُّه أو تجذبه إليها . . .

ورفع عينيـهِ ليرى يـدين في قُفَّـازٍ أسْـوَدَ تمسكـان بمقـدمـةِ جَنَاحه، وتَسْحَبَـانِه في اتجاه أطلالِ المهديَّـةِ، وهو يكادُ يلمسُ بقدميه قِمم الأشجار . . !



7

رَنَّ جَرَسُ الهاتف على مكتبِ الحاجِّ «عُمـرَ العبَّاسِ» في داره الفَخْمة بإحدى ضَواحـي «القنيْطِرَة» ، فالتقط السَّماعة ، وأزاح النظارة عن عينيه :

- آلو . . .

وجاءه صوتٌ بعيد :

- الحاج عُمَر العباس ؟

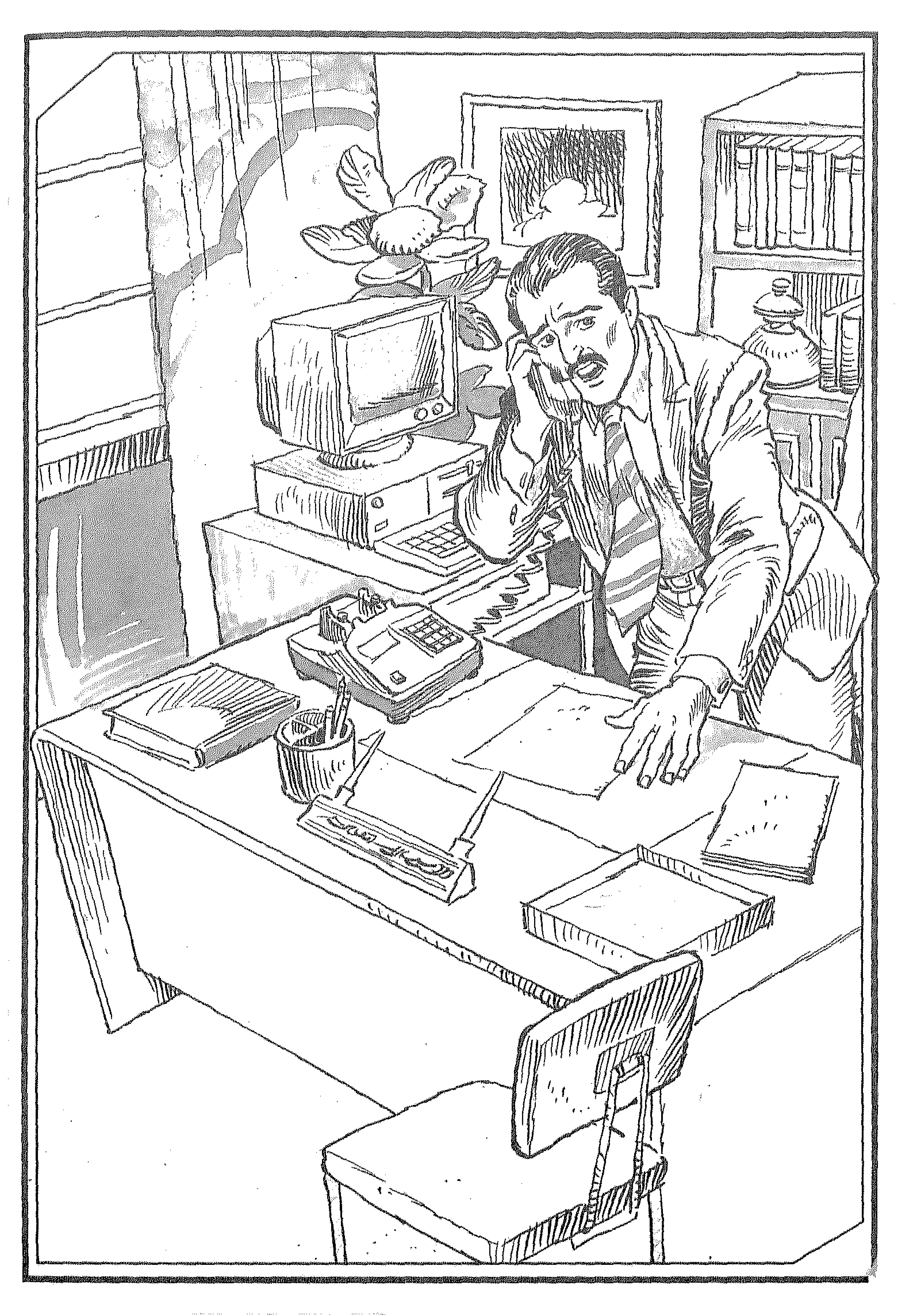
- نعم .

- مديرُ ورئيس شركةِ أطعمة الجيشِ المعلَّبة ؟

- نعم . ماذا تريد ؟

- هل لك ابنٌ اسْمُهُ جعفر ؟

- نعم .



قالها بقليل من فقدان الصَّبْرِ، فقال الصوتُ :

- ابنك جعفرٌ عندنا .

- ماذا تعني عندكم؟ مَنْ أنتم ؟

- ابنك عندنا رهينةٌ، خَطَفْنَاهُ، وهو أسيرٌ في قبضتنَا !

وابتلع الحاجُّ عُمَرُ ريقَـهُ بصعوبةٍ، غير مصـدِّقٍ ما يَسْمَع، وقال :

- هَلْ هذا مِزاحٌ؟ إذا كان كذلك فهو مزاحٌ سخيف !

فجاءه الصوتُ حازمًا :

- لا مزاحَ في الأمـرِ. وسوف تتأكد حين لا يعـود ابنُكَ هذه الليلة .

واستـولى عليـه الخوفُ على حيـاة ابنـه الـوحيـد، فأمسك بالساعة بقوةٍ، وقد تفصَّدَ جبينُه عرقًا، وابتلَّتْ يَدَاه :

- ماذا تريدُون ؟ كم تريدُون؟

فسمع ضحكةً مُعَرْبِدَةً:

- ولاَ دِرْهَمْ! نحن لا نريدُ مـالاً. . . نحنُ طلاَّبُ علمٍ، لا مَال.

- ماذَا تعني؟

- سأشرحُ لك. فاسمعْ جيداً مـا سأقول. إذا كنتَ تريد أن تـرى ابنـك حيًّـا، فعليك أن تتعــاون معنـا بكـامـل السرِّيَّـة والهدوء! الشيء الـذي نريـده لن يَتَطلَّب منك أيَّ مجهـودٍ على الإطلاق. . .

فقال الحاجُّ عُمَرُ:

- مَا هوَ؟

- نريدُ الحصولَ على الوَصْفَة السرِّيَّة لأغذيتكَ المعلبة.

وتنهَّد الحاجُّ عمرُ مُرْتاحًا، وقال بشبه فرحةٍ:

- أهذا كلُّ ما تـريدونه؟ ما كنتمْ بحـاجة إلى اختطاف ابني للحصـول على ذلك. وَصْفَتـي ليســت سـرًّا خطيـراً على أيِّ حـال. وكــان في إمكـانكم الــدخـولُ عليَّ من البــاب بـدلَ النافذة. . .

فقاطعه الصوت بحدَّة :

- فكَّرنا في ذلك . . . ولولا معرفتنا بأنك رجلٌ عنيدٌ صلبُ الدماغِ لفعلنا . ولكننا فكَّرنا أننا بهذه الطريقة ، سنقصِّرُ الطريق ونزيل جميع العَقَبات .

فقال الحاجُّ فاهمًا :

- حسنًا . حسنًا . أحضرُوا الولَدَ ، وتسلَّموا الوصفاتِ حالاً .

- لا ، ليس بهذه السهولة . من سيضمنُ لنا أنها هي الوَصفَاتُ بعينها ؟ نريد أن نتأكَّد بأنفسنا .

وفكَّر الحاج ثم سأل :

- ولكنْ كيف؟

- سنبعث إليك غدًا صباحًا بأحدِ خبرائنا ، ليراقبَ عمليَّة تحضير جميع أصنافِ أطعمتك ، من المادة الخامِّ إلى الإنتاج الكامل . أعني ليحضرَ ويتابعَ دورةً إنتاجية كاملةً . وسوف يصوِّرُ العمليَّة ويسجلُها ويحلِّلُ التَوابلَ والإضافات الكِيمَاويَّةَ ويقفُ بنفسه على شحنها إلى اتجاهِهَا . وسننتظِرُ ردَّ فعل

المستهلكِ، حتى لا يحدث تـلاعبٌ من طرفكَ في آخـر لحظة، وعنـدما نتأكَّـد من سلامـة نيَّتك، سنطلق سراحَ الولَـدِ. فهل فهمت؟

فَمَسحَ الحاج عمرُ جبينهُ، وقال:

- على هذه الحالِ سيطولُ الأمرُ كثيرًا. . .

فردَّ الصوتُ:

- لماذا؟ كم طولُ الدورة الإنتاجية عندك؟

- الدورة وحْـدها لا تتعـدَّى يومًـا واحدًا. وفي آخـر النَّهارِ نشْحَنُ الـمُنْتَجَ إلى وجهتِه.

- متى بالضبط يصلُ إلى المستهلك؟

- داخِلَ أرْبَع وعشرين ساعةً. يُشْحَنُ بالطائرة إلى الميدانِ. الجيشُ يصرُّ على وصولِ المعلبات طازجة.

- حسنًا، إذن لن يطُولَ انتظارك. بعد أربع وعشرين ساعةً سترى ولدَكَ. ولكن لا تحاولْ سؤالَ خبيرنـا عَنْه؛ فهو لا يعرفُ شيئًا من هذا الاتفاق الذي يحدثُ بيننا.

- كيف أعرفُ أنَّ ابني ما يزال حيًّا ؟

- سنبعثُ لك بصورةٍ له مع جريدة الغدِ حتى تتأكَّد .

- أريدُ أن أتكلَّم معه .

- لَيْسَ الآن .

- إنكم تبالغونَ في الاحْتِياط . هذه عمليةٌ لا تحتاجُ إلى الاختطافِ والتهديد .

- لا دَاعِي إلى هذا الكلامِ الزائد . هل قبلْتَ الصَّفْقة ؟

- نعم . نعم .

- حذَارِ، إذن من الاتِّصال برجال الأمن ، أو إفشاء السرِّ لأيٍّ كان . وقل لجميع أهل بيتكَ أن يقفلوا أفواههم ، إلى أن تنتهي العمليّة ، إذا أرادوا عودةَ جعفرٍ حيًّا .

وأنهى المكالمة ، وبقي الحاجُّ عمر العباسُ ينظر إلى السَّماعةِ ذاهلاً ، وكأنَّها قطعةٌ من جسمِ مخلوقٍ غريب .

8

دقَّ جرسُ البـاب ثلاثَ مـرّاتٍ متتابعـةٍ فَوَضعـتْ أمُّ جعفرٍ يَدَهَا على صدرهَا، وصاحتْ بالخادمات:

- افتحنَ الباب! من هـذا الذي يدُقُّ هكـذا كأنَّ إِصْبَعَهُ في عَيْنِه..؟!

وفتحت خـادمٌ صغيرةٌ البابَ، فانـدفَعَ أحمد صديق جعفرٍ، بسرعة إلى وسطِ الدَّار، وقد شَحَبَ وجهُه، وغارت عيناه.

وحين رأى السيِّدة عائشةَ أمَّ جعفرٍ جرى نحوها سائلاً:

- هَلْ عَادَ جعفر؟

- لا، لم يَعُدْ بعدُ. كُنْتُ أظنُّكُما معًا.

وأحسَّتْ الأم بغـريزتها أنَّ شيئًا مـا حدثَ لابنهـا، فسألتْ مقتربةً من أحمدَ:

– ماذا حدث ؟ أَلم تكنْ مَعَه؟

وهنـا انهَمَرَتْ الـدُّمُوعُ غـزيرةً من عيني أحمد، فأمسَكَتْ بـه الأم من كتفيهِ، وأخذت تهزُّه:

– ماذا حدث لولدي؟ قل!

فقال وهو يَشْهَقُ:

– لا أدري. فقدناه في الغابة...

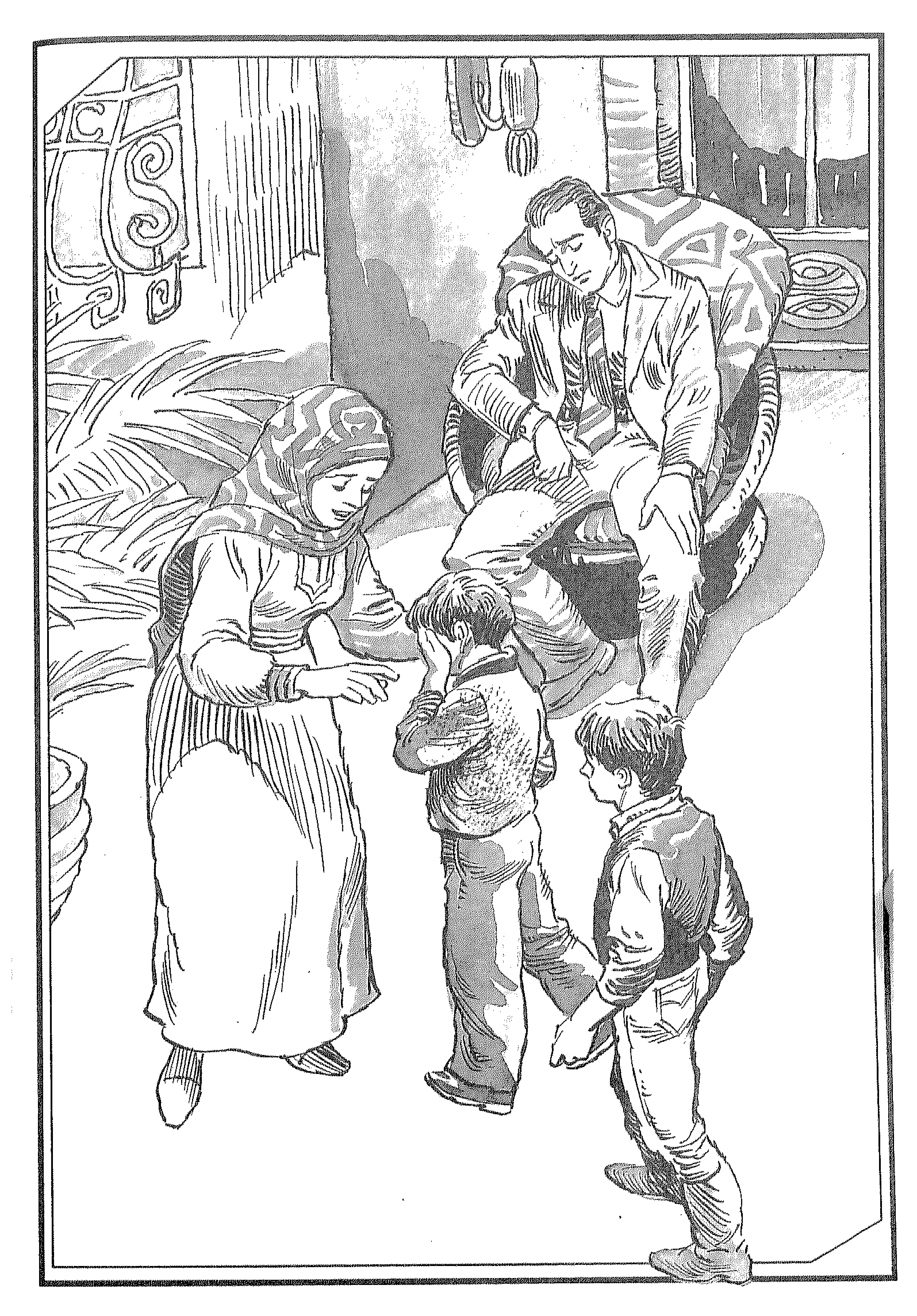
فهزَّته الأم مرة أخرى:

– كيف فقدتُمُوه ؟ تكَلَّمْ..!

وسمِعَ الحاجُّ عمـرُ العبـاسُ الضَّجـةَ من داخـل مكتَبـه، فـاسْتيقظ من صدمـةِ المكالمةِ، وخـرج ينظر مـا يحدث بِصَحْنِ الدَّار.

ومَسَحَ أحمدُ عينيهِ، وبدأ يحكي:

– طـار وابتعـد عن الهضْبـةِ التي كنَّـا نحلِّقُ حـولها، وحلَّق بعيدًا، ليدورَ حـوْلَ هضْبةٍ أخرى قريبةٍ، وانتظـرنا أن يعُودَ فلم يَفْعَل.



واغْرَوْرَقَتْ عيْنَاهُ، وأشْرَفَ عَلَى النَّحِيبِ، فضغطَتِ الأم على ذراعيه:

- أَتمَّ كلامَك! ألم تَبْحَثوا عنه؟

- ذهبنا جميعًا للبحثِ عنه. وطارَ المدرِّب نفسه فَوْقَ الهَضْبة وحَوْلَها باحثًا عنه بين أشجارِ الغابةِ، فلم يعْثُرْ له على أثر. وذهبنا نحن جميعًا بسياراتنا، ومَشَطْنا الغابة على الأقدام ننادي باسمه حتى وصلنا الطريقَ العامَّ دون جدوى.

وأحسَّت الأم بفراغٍ في رُكْبَتَيْهَا، وبالدم يَنْحَسرُ عن رأسها، فتداركَها زوجُها الحاج عمرُ قبل أن تسقط، وحملها نحو غرفة الجلوسِ.

وأسْرَع الخدمُ إلى المَطْبخِ، وجئنَ بنصف بَصَلةٍ، وقعد الحاجُّ إلى جانب زوجته يحاول إنعاشها.

وسألت خديجةُ أختُ جعفر:

- أحمد، هل أنت متأكِّد من أنه لا يمارس خدعةً عليكم؟

فحرَّك أحمدُ رأسه بالنفي.

- لا، لَيْسَ لهذه المدة الطويلة. أعرفُ أنّه يحب الخُدعَ والمزاحَ. ولكنّي متأكّد من أنّ هذا ليس خدعةً ولا مِزاحًا...

- كيف عرفتَ؟

- لو كان ينوي ذلك لخرج لنا من بين أشجار الغابة، وضحك الجميع وانتهى الأمر... ولكن لا أثر له في الغابة بالمرّة! لقد مشطناها من سفحِ الهضبةِ، حيث اختفى، إلى طريق السيّارات العام، وبالعكس، ولا أثر لجناحه ولا له...

فقالت زكيّةُ أختُه الصغرى:

- أنا متأكدةٌ من أنه سيخرجُ علينا في أيّة لحظة، فتلكَ هي أفاعيله!

فقال أحمدُ آملاً:

- أرجو ذلك يا زكيةُ. أرجو ذلك!

ثمَّ أضاف غاضبًا:

- إذا كان هذا كلّه مِزَاحًا، فسأقلع أذنَه حين أراه! سَتَرَيْن!

ورنَّ جرسُ الهاتف في مكتب الحاجِّ عمرَ فأسرعتْ زكيَّةُ إليه :

- آلُو.

- هل جعفرٌ هناك؟

- لا . . . من يَطْلبُه؟

- أنا مدرِّبه . وقد عدتُ لِتَوِّي من الغابَة .

وأخذ الحاج عمرُ السمَّاعة من يد ابنتِهِ :

- آلُو. مَنْ ؟

- سي الحاجّ . هذا عَبْدُ الله مدرِّب جَعْفرٍ على الطَّيرانِ الجناحي . كنتُ أسألُ هل عَادَ إلى البيت .

فردَّ الأبُ متصنِّعًا الهدوءَ :

- نَعَمْ لَقَد عَاد . . .

فأحَسَّ الحاج عمرُ بالمدربِ يتنفَّسُ الصُعَدَاء ويرتَاحُ ، وكأنَّ عبئًا ثقيلاً انزاح عن ضميره :

- صحيح ؟

- طبْعًا، لماذا ؟

- لأنَّنـا بحثنـا عَنْه في كـلِّ مكان فلم نعثُـر عليـه . لقـد مَارس معنَا خُدعةً من الدرجة الأولى . هل يمكن أن أتكلَّم معه ؟

فتلعْثَمَ الأبُ قليلاً قبل أنْ يقول :

- حَالما يَـخْرجُ من الحمَّام . إنه يَسْتحمُّ الآن .

- سَلِّمْ عليه، على أيِّ حال . وقلْ لـه لنْ تُقْبَل منه مِثْلُ هذه الفَعْلة مرة أخرى . لقد كادَ يقتلنا القلقُ عليه !

- سأفعل . أنا آسفٌ على مـا سبَّب لكم مِنْ متاعِب . ولكنَّ طَبْعَهُ هكذا .

ووضَع السَّماعـة، فإذا بأمِّ جعفرٍ وأختيـهِ، وأحمد يقفونَ على بابِ المكتب يستمعونَ غيرَ مصدِّقين .

وسألت الأم :

- مع مَنْ كنت تتحدَّث ؟

- مع مدرِّب جعفر.

- وقلتَ له إنَّه هنا في الحمَّام ؟

- نعم .

- ولكن لماذا ؟

- سَتَعْرفينَ قريبًا .

وذهب بهم إلى غرفة الجلوسِ وجمعهم حولهُ ، وقال :

- لا دَاعيَ للقلقِ على جعفرٍ . قبلَ أن يَدْخُلَ أحمد جاءتني مكالمةٌ هاتفية من رئيس عِصابةٍ يقولُ إنّه عِنْدَهُم .

فوضعتِ الأم يدَهَا على صدرِهَا :

- خطفوه ؟! خطفوا ابني ! ماذا يريدُون مِنَّا ؟

- لا داعي للانزعاج ، قلتُ لك ، إنهُم يَطْلبون فِدْيةً ، وسوفَ أعطيهم إيَّاها ، وأسترجعُ الولد . هذا إذا تعاونتم جميعًا معي .

فَسَألتِ الأم :

- كَيْف ؟

- بـالصَّمتِ وعـدم الحديثِ مع أيِّ أحـدٍ على الإطـلاقِ في الأمر، وبخاصة أنتما، زكيَّةُ وخديجةُ !

وفَتَحَتِ الفتاتانِ أعينَهما وفميْهِمَا، وأخذتَا تُقْسِمَانِ على التزامِ الصَّمت.

واستأْنَفَ الحاجُّ عمرُ:

- إذا سألكم أحَـدُ أصـدقـاء جعفرٍ عنـه فهُـوَ في أوروبـا. أرسلتُه أنا في مهمة تجارية إلى هناك. وسيعود بعد أسبوعٍ.

9

وفي الثامنـة والنِّصف من صباح اليوم التَّـالي، دَخَلَ حارسُ الباب على الحاجِّ عمرَ العباس مكتبهُ بالمَعْمل، وأعلَن:

- بالباب رجلٌ أجنبيٌّ يطلبُ مقابلتك.

ودقَّ قلبُ الحاج عمـر. فقـد كـان ينتظرُه منـذُ وصـولـه إلى مكتبه بعد صـلاة الفجر مباشرةً! وفي الواقع بـات ينتظره طولَ الليلِ دون أن يذوقَ طَعْمَ النوم، فقال للحارس:

- أَدْخِلْهُ حالاً.

ودخلَ الرجلُ الأجنبـيُّ الذي كان يبـدو عليه الـوقارُ، فسلَّم على الحاج عمر بحرارةٍ، وصافحهُ بيدٍ خشِنَةٍ تدلُّ على أنه رجلٌ اشتغل بيده طول حياته.

وأشارَ له الحاجّ عمرُ ليجلسَ، فنظر إلى السَّاعة، وقال:

- تعليماتي أن أبدأ العمل مع بَدْءِ الدّوْرَةِ، إذا لم يكُنْ عندكمْ مَانع.

ونظر الحاج عمرُ إلى عَيْنَيِ الرجل، لعلّـه يَكْتشفُ تواطؤًا مع مُختطفي ابنه، فلم يـرَ إلا ابتسامة البسـاطة والبراءة. فلم يَمْلِكْ إلا أن قـاده إلى حيثُ يتابع دَوْرَةَ العملِ. ونَـادَى مُشْرفَ المَعْمَل فقدَّمـه إليه على أنـه خبيرٌ مُستشارٌ في تحسين ظـروفِ الإنتاج، وأنَّ عليه أن يلبِّي جميع رغباته.

ونزع الرجلُ سترَتَهُ، ولبِس بِـذْلةَ عملٍ زرقاءَ، ووقف ينتظر، فأشارَ له الحاج عمرُ أن يتبعهُ إلى غرفةٍ مكتوبٍ على بابها «يُمْنَعُ الدخول منعًا باتًّـا»، ففتحها بمفتاح معلَّق في عنقه، وأشار إلى الرجلِ أنْ يـدخلَ، وتبعَهُ، ونَظَـرَ إلى المشرفِ الذي كـان ينظر إليه باستغرابٍ، وأقفل الباب.

وفي داخل الغرفـة أخذ الحاج عمرُ يغرف التـوابلَ من براميلَ وزجاجاتٍ وعلبِ قصدير، ويَـزِنُهَا وزنًا دقيقًا، والرجلُ يلاحِظُ باهتمام، ويذوق بإصبعه، ويكتبُ المقـاديرَ الموزونة، ويصوِّرها بـآلـةِ جيْب، ويحلل الموادَّ بجهـاز تحليل غـريبٍ، حتى اكتملَ

الخليطُ فصبَّه الحاج عمـرُ في إنـاءٍ من البـلاستيك، وخـرج الاثنان.

وتنـاول المشرفُ الإنـاء من الحاج عمـرَ، وانضمَّ الـرجلُ إلى العمّال.

ومن نـافذة مكتبـهِ المُشْرِفِ من أعْلَى على المعملِ وقف الحاج عمرُ يـراقب حركاتِ الـرجلِ مدة، ثم عـادَ إلى الجلوسِ خلفَ مكتبه.

وعند الحاديةَ عشرة وصلتـه رسالةٌ مع سـاعٍ خاصٍّ، ففتحها فإذا بها صـورةٌ لابنه جعفـرٍ، وبين يديـه جـريدة صـدرتْ ذلك اليوم.

ودقَّ قلبه لمنظـر ابنه، وتسـاءل عمَّا إذا كان يعـاملُهُ مختطفُـوهُ بقسوةٍ أو بلطف.

وفي الخامسـة مساءً دقَّ جـرسُ نهايةِ العملِ، فلبِسَ الـرجلُ الأجنبيُّ سُترَتَـهُ، ومدَّ يـده إلى الحاجّ عمـرَ مودِّعًـا، واختفى في الشارع كما ظهر...

وبقي الحاجّ ينظر من نافذة مكتبه إلى مَصْنعه الفارغِ من العمال، وكأنه واقعٌ تحت مفعولِ مخدِّر!

وسمع زئير شاحناتِ الجيش الضَّخمة وهي تُقْلِعُ من رصيف الشَّحن خلفَ المعملِ محمَّلةً بصناديق معلّباته الطازجة، متوجهة نحو المطار.

ولم يوقظه من سهومِهِ إلاَّ رنين الهاتفِ الحادُّ، فالتقط السماعة، فإذا زوجته تسأل:

- هل من خَبَر؟

- لا، لا شيء. لم يصِلْ بعْدُ الموعِدُ؛ فلا تقلقي...

- هل أنت قادم؟

- نعم. حالمًا يصلُ عمّالُ التنظيف الليليُّون.

ووضَعَ السَّماعة ونهضَ.

وعلى الباب التقى الحاجُّ العمالَ الليليين، ومرَّ بينهم وهم يُسَلِّمون عَلَيه دون أن ينتبهَ لوجودهم.

ورَكِب سيَّارته وانطلق نَحْوَ منزِله.

10

واكْتَفَى من عشائه بجرعة مـاءٍ. وقام فَدَخَلَ غـرفة نَـوْمِهِ، وفرشَ سجادته ووقف يصلِّي، ويـدعو الله بخشوعٍ أن ينقذ ابنه جعفرًا من الموْتِ . . .

وطَـالتْ صـلاتـهُ، فأشفقت عليـه زوجتـه من الإرهـاق، وانتظرَتْ حتى سلَّم، فَجَلَست إلى جـانبه، ووضَعَتْ يـدها على يده، وقالت بحنان:

- تعـالَ استرحْ قليـلاً، إنَّك لم تـأكل شيئًـا، فـاسترحْ على الأقل.

ونَهَضَ فَلَبِس منـامتـه[١]، واستلْقى على فِـراشــه صـامتًـا يقلِّبُ الأمرَ في ذِهنه.

وعند الثـانية صباحًـا لَمَعَت في ذهنه فكـرةٌ أقْعدتهُ في فـراشه بعنفٍ! وأشعلت زوجتُه المصباح، وجلسـت هي الأخرى تنظر

---

(١) منامته: أي لباس النوم.

إليه في توجُّس .

- ماذا بك ؟

- تذكَّرتُ شيئًا . . .

- ماذا؟

ونهض وأخذ يلبسُ جلبابهُ فوق منامتِهِ بسرعة ، وهي تلحُّ في السؤال :

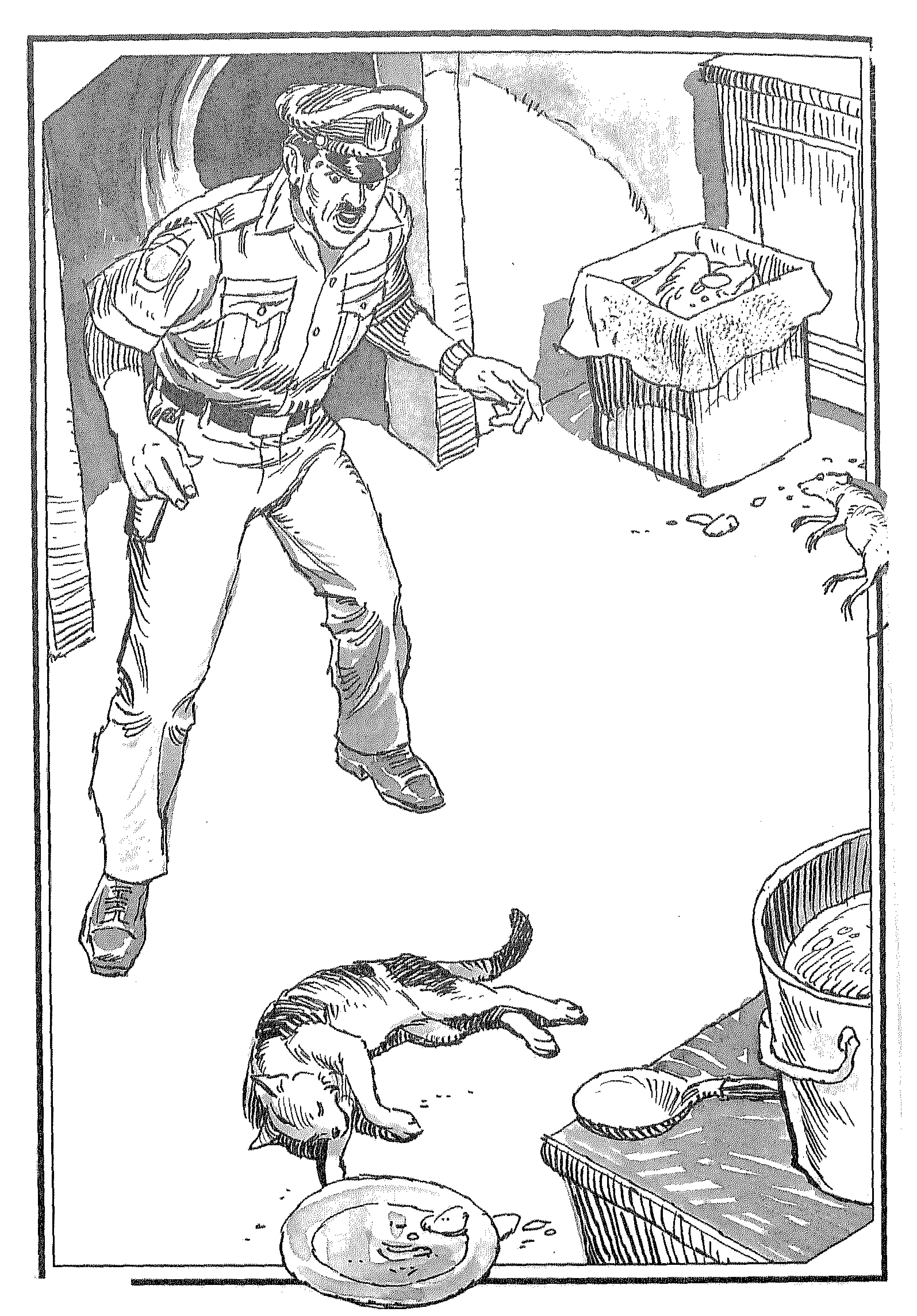
- نَسيتُ أن أُقفلَ خِـزانـةَ الأوراق في المعمل . سأذهبُ الآن وأعود حالاً . . .

وخرجت المرأةُ معه إلى الباب وقد خَامَرَها الشكُّ في صدْقِ ما يقول زَوْجُها . . .

وفي هـذه اللحظـة رنَّ جـرسُ التلفـونِ وسطَ الـدار، فَقَفَـز الاثنـان ذُعْـرًا لارتفاع رنينـه الحادِّ في هـدأة الليل ، فأسرع الحاج عمرُ والتقطه وسط الرنةِ الثانية :

- آلو. منْ ؟

- أنا مباركٌ ، حارسُ المعمل ، يا سيِّدي الحاج . سامحني إذا كنت أزعجتُكَ ، ولكنَّ شيئًا حدثَ بالمعمل .



فقاطعهُ الحاج :

- ماذا حَدَث ؟

- أرجوكَ أن تَـحْضُر بنفسكَ حالاً لِتَطَّلعَ عليه .

- ماذا حدث؟ تكلَّم !

فردَّ الحارس بصوتٍ مُرْتعِش :

- وجدتُ ، يا سيِّـدي ، عددًا من القطط والفيران والكلاب ميِّتةً بمزبلة المصنع .

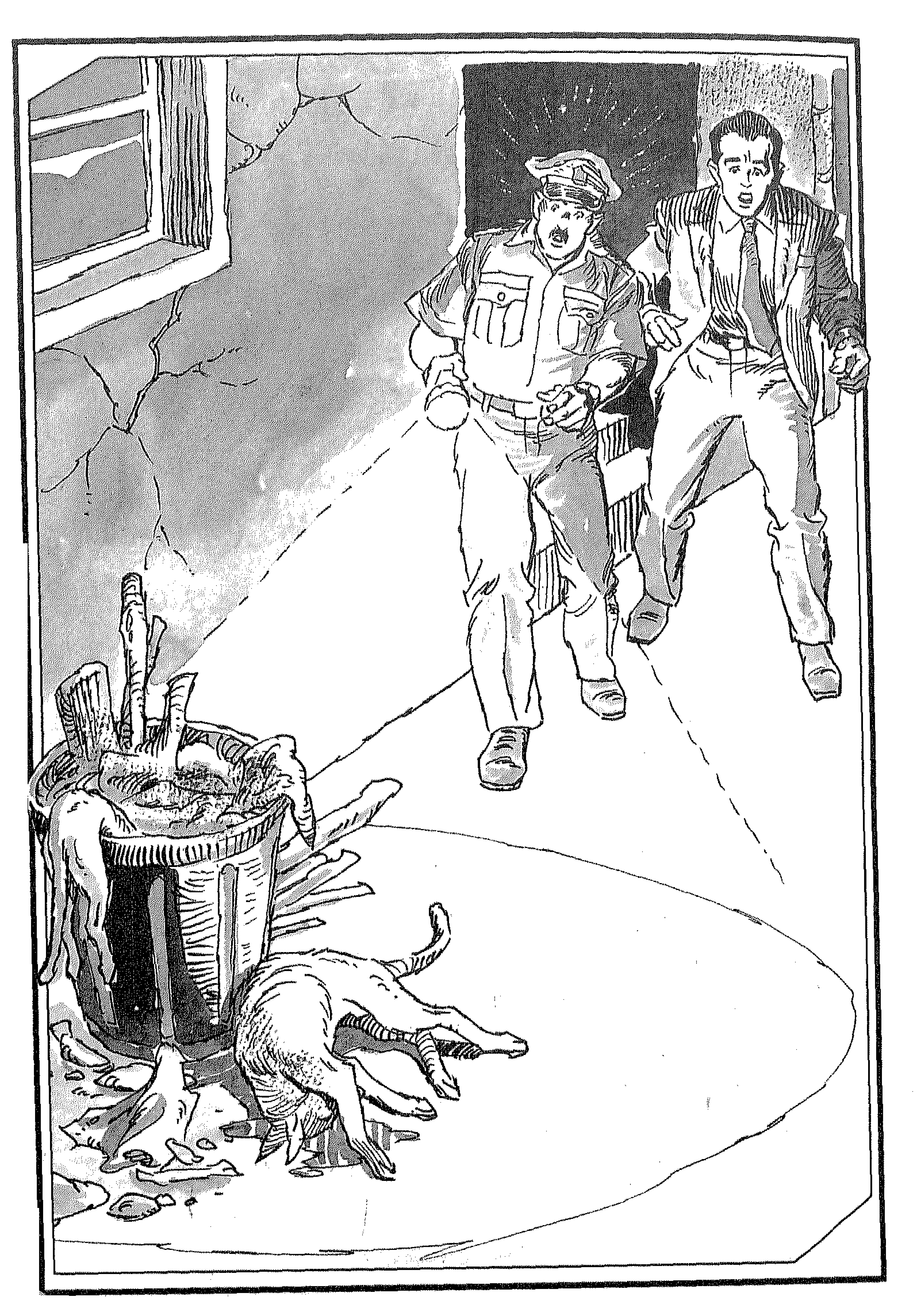
- وماذا يعني ذلك ؟

- إنها أكلت من بقايا الطَّعام الذي علَّبناه بالأمس .

وانـزعج الحاج عمـرُ العبـاس انـزعـاجـاً شـديـدًا ، ورمى بـالسَّاعـة على الجهاز، وخـرج دون أن يلتفت إلى زوجتـه التي تنتظرُ شرحًا . . .

وفي المعمل وجد الحارسَ ينتظره على الباب ، فبادره هذا أول ما رآه بقوله :

- شيءٌ فظيعٌ ، يـا سيِّدي الحاج ! لم يحدث لنا مثلـه من قبل أبدًا . . .



ونحّاهُ الحاجُّ بيده جانبًا، وتوجه رأسًا إلى غرفة القمامة، حيثُ تُرْمَى بقيةُ الأطعمةِ، وقلبهُ يدقُّ بعنفٍ، ووقف ينظر ذاهلاً إلى المشهدِ الكريهِ على أرض الغرفةِ! كانت جُثَثُ عددٍ من القطط والكلابِ والفيرانِ منثُورةً ميِّتة، وقد خرجَتْ من أفواهها رَغْوَةُ التسمُّم.

ووقف الحارسُ إلى جانبه يشيرُ إلى بقايا الطَّعام، ويشرحُ:

– لا بدَّ أنه الأكل يا سيدي! الحمد لله أنَّ أحدًا من العمال والعاملات لم يأكله!

كان ذلك بالضبط ما خطر ببال الحاج قبل أن يناديه الحارسُ. لم يقتنعْ تمامًا بأنَّ هدف العصابة التي اختطفت ابنه كان مجرَّدَ الحصولِ على وصفةِ الطعامِ.

والآن يتّضحُ له الأمر! المؤامرةُ أكبر من محاولةِ سَرِقَةِ سرٍّ تجاري. إنها تستهدفُ سلامةَ الوطن... وجيشَ البلادِ!

واستيقظ حماسُهُ الوطنيُّ، فأسْرعَ إلى مكتبهِ، وتناولَ سمَّاعةَ الهاتف، وأدارَ رقمَ ثُكْنَةِ[1] الجيْشِ، فأجابه صوْتُ عَامِلِ الهاتف:

---

(١) الثُّكْنَة: المركز العام للجند، وتجمع على ثُكَن.

- نعم.

- أريدُ العقيدَ بسرعة!

- من يطلبُهُ في هذه الساعة؟ إنه نائم.

- قلْ لـه الحاج عمـرُ العبَّاس. إنـه يَعْـرفني. الأمـر خطيرٌ للغاية، ولا يقبل الانتظار حتى الصَّباح..!

وأمسك بـالسماعـة بيدٍ مُبْتَلَّـةٍ بـالعـرقِ، ووقف ينصتُ إلى صوتِ عامل الهاتف بصبرٍ نافدٍ...

وفي هـذه اللحظـة رنَّ جرسُ الهاتف الآخـر فـارتعشَ الحاج عمرُ، والتقطه:

- آلو.

- الحاجّ عمر؟

- نعم.

وتعرَّف الحاج عمرُ الصوتَ في الحال، صـوتَ النَّاطقِ باسْم العصابة التي خطفت ابنه:

- ماذا تريد؟

- حـذارِ أن تـرتكب أيـة حماقـة ! إننـا نَتَتَبَّع خطـواتك عن كثب. لم يبقَ على إطلاق سراح ابنك إلا سـاعاتٌ معدوداتٌ، فلا تخرقْ الاتِّفاق. . .

وأحسَّ الحاج بالدم يغلي في رأسه :

- أي اتفاق أيها المجـرمون ؟! أنتم الـذين خرقتـم الاتفاق، أعطيتُ خبيركـم كلَّ التسهيـــلات التي طلبتـم، بما في ذلك الـوصفة السِّـــرية لأطعمتي. . ولكنَّه خـانني، ووضع السمَّ في الطعام. . .

فقال رجل العصابة بصوت ساخر:

- هل فعـلاً كنت تعتقـد أننـا نريـد الحصـولَ على وصفتك التَّعِسَةِ يـا مغفّل؟ يا لك مـن بليدْ! اسمع ؛ ابنك بين أيـدينا، وعيُونُنَـا عليك، وآذاننا تُنْصِتُ إلى كلٍّ ما تقولـه، فإذا أفسدتَ العملية، فاستعدَّ لِتسلُّم جثة ابنك غدًا. . !

وطعنتهُ كلماتُ الرَّجُلِ كخنجرٍ باردٍ مَسْمُوم !

وَسَمِعَ صَوْتَ العقيد على السَّماعة الأخرى :

- آلو، آلو، الحاج عمر، آلو. . .

- نعم . سيدي العقيد . آسف لِتَركِكُم تنتظرون !

- ماذا حدثَ ؟

فبلع ريقَه ، واستجمعَ شجاعته وقال :

- أريـد أن توقـفَ شُحنةَ الأطعمـة التي أرسلْتُ لك اليـومَ حالاً !

- ولكنها طارتْ إلى مستودع التوزيع .

- أرجوكَ أن توقِفَها في الحال !

- لماذا ؟

- لأنني اكتشفت أنَّها مسمومة .

- ماذا ؟

- كما سمعت !

- ولكن كَيْفَ حدثَ ذلك؟

- أرجـوك ، لا تُضيِّع وقتا . . . سأحكي لك كلَّ شيءٍ بعـد زوال الخطر، فقـد قُتِل عددٌ مـن الحيوانـات هذه الليلة بـذلك الطعام .

وانقطعَ صوتُ الضابط لحظةً ثم عاد:

- اسْمَعْ، ابقَ حيث أنت، واترك كلَّ شيءٍ على ما هو عليه، قلْ لحارسكَ ألاَّ يكلِّمَ أحدًا بما حَدَثَ، فهمت؟

- نعم. نعم.

وانقطعت المكالمة.

وهَوى الحاج عمرُ داخلَ كرسيِّه منهارًا مُرْهَقَ النَّفسِ والبدنِ، ووضع رأسه بين يديه وأخذ ينتحبُ بحرارةٍ على ضياع ابنه...

ونظر الحارسُ إليه من خلفِ زجاج المكتبِ، وانسحب في صمتٍ مُحْترمًا أسَاه...

11

وَبَعْد حوالي نصفِ ساعـة أفاق الحاج عمرُ على طرقٍ عنيفٍ على باب المعمل، فمسحَ عينيْهِ، ونزل.

كـان الحارسُ قد أشعل جميعَ الأضـواء، وفَتَح البـابَ، فإذا العقيد وخلفه عددٌ من الضباطِ الصِّغـارِ والجنود يملأون ساحة المعمل.

وأيقن الحاج «عمرُ» أنَّ هذه نهايَتُهُ. لا بدَّ أنهم جاءوا لإقفال المصنع والقبضِ عليـه... ورفع عينيـه الحَمْـراويْنِ من السَّهَـر والبكاءِ، ونظر في عينـي الضابط الشاب، فرأى بريـقَ ابتسامة ودُعابَةٍ ماكرة.

واسْتَغْرب حين مَدَّ له الضابط يـدهُ مصافحًا، وقال بصوتٍ عسكريٍّ حازم:

- السيّدُ الحاج عمـرُ العبَّاسُ، باسْم قـواتنا المسلَّحة البـاسلةِ أحييك وأهنئُكَ على شجاعتك ووطنيتك وقوة إيمانِكَ...

ووقف الحاج عمرُ ذاهلاً فاغرَ الفمِ، يَنْظر حَوَالَيْه غير فاهِم.

وارتفع صوتُ الضابط آمرًا:

- أحضروا الأسير!

فإذا بابْنِه جَعْفرٍ بين جُنْديَّينِ صَحيحًا سليمًا باسمًا يتقدم نحو أبيه ويعانِقهُ بحبٍّ وحرارةٍ..!

وانهمرت دموعُ الأبِ وهو يَضَمُّ ابنه إليه غَيْرَ مُصَدِّقٍ، ويتمنَّى عَلَى الله ألاَّ يكونَ في حُلم!

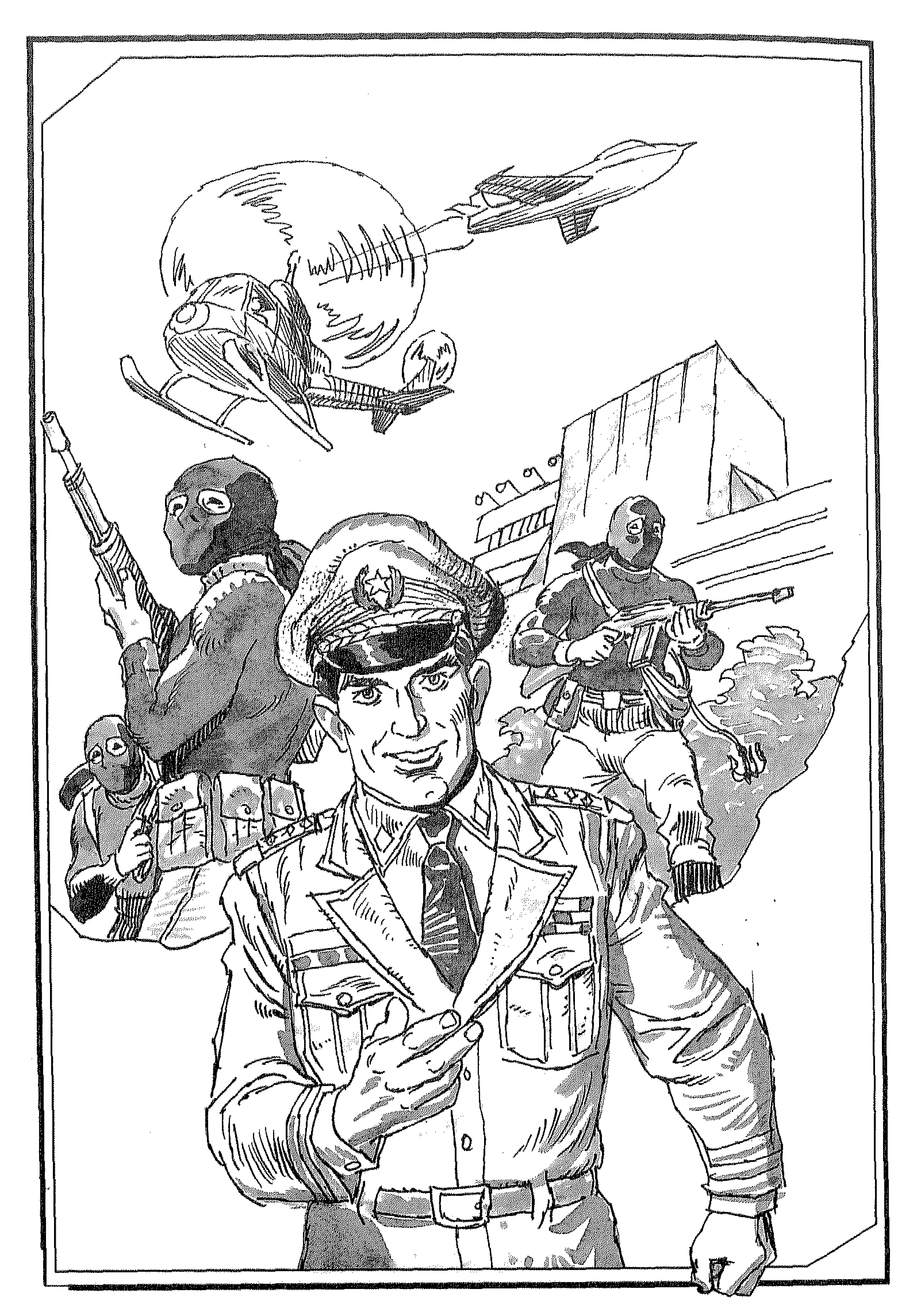
وجاءَ صوْتُ الضابطِ:

- أهنئكَ على اجتياز الامتحانِ بنجاح وامتياز...

وسأل الحاجّ غير فاهم:

- امتحان؟ أيُّ امتحان؟

- الامتحانُ العسيرُ الذي عرَّضتْكَ له العصابةُ الخبيثةُ، وقد تَتَبّعنا جميع مراحلِ الاختطافِ، منذ أن اختفى ابنك جعْفَرٌ من فوق شاشةِ الرَّادارِ التي تمْسَحُ المنطقة. ولم نُرِدْ التدخل حتى



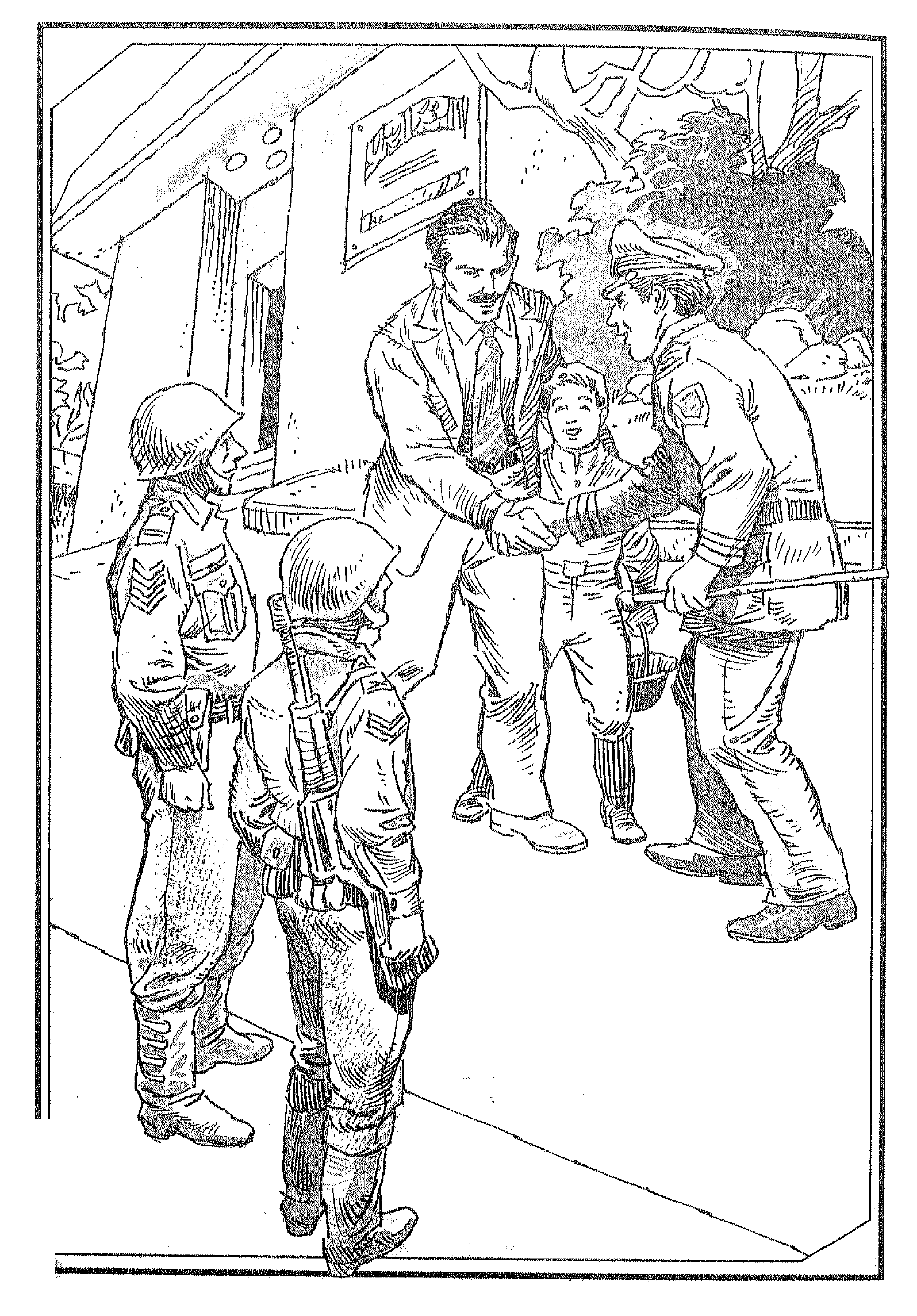
نعرف كلَّ شيءٍ عن العصابة . . . ونبشرك بأننا قبَضْنَا على جميع أفـرادهـا . . . وهي عصـابـةٌ دوليـةٌ تموِّلهَا دولـةٌ أجنبيـةٌ ، ولها إمكَاناتٌ ضخمة لا تتوافرُ إلاَّ للجيـوشِ النظامية ، كالطائراتِ والهيليكوبترات والغوّاصاتِ وغيرها . . !

وتنهَّـد الحاج عمـرُ العبَّـاس بعمق وهـو يستمعُ إلى المؤامـرةِ التي كاد يذهبُ ابنُه ضحيتها . ثـم انفرجت أسارِيرُهُ ، وظهرتْ عليه علاماتُ العودةِ إلى الحياة . . .

ووقف الضـابطُ فأدَّى للحـاج عمـرَ وابْنِـهُ تحيـةً عسكـريـةً أنيقةً ، ومدَّ يدهُ فصافحهُ مرةً أخرى قائلا :

- لقـد فُـزتَ بصفقـةِ القـواتِ المسلَّحـةِ . وسـوف نـزكِّيكَ للحصـول على وسـام . والآن ينبغي أن تـذهبَ بجعفـرٍ إلى والدته . فلا بد أنّها قلقةٌ عليه .

وانصرفَ الضابطُ وجنودُه .



12

وفي السيارةِ التَفَتَ جعفرٌ إلى أبيه وقال له :

- سَخَوْتَ بي، يا أبي ؟

فردَّ الأبُ وَعَيْناه على الطريق :

- ليس من أجلِ المعملِ أو الصفقةِ، يا بنيَّ؛ فأنت أعزُّ عليَّ من نفسي، ولكن من أجل سلامةِ قواتنا المسلحةِ، دِرْعِ الوطنِ الغالي، أضحِّي بكلِّ شيء . . .

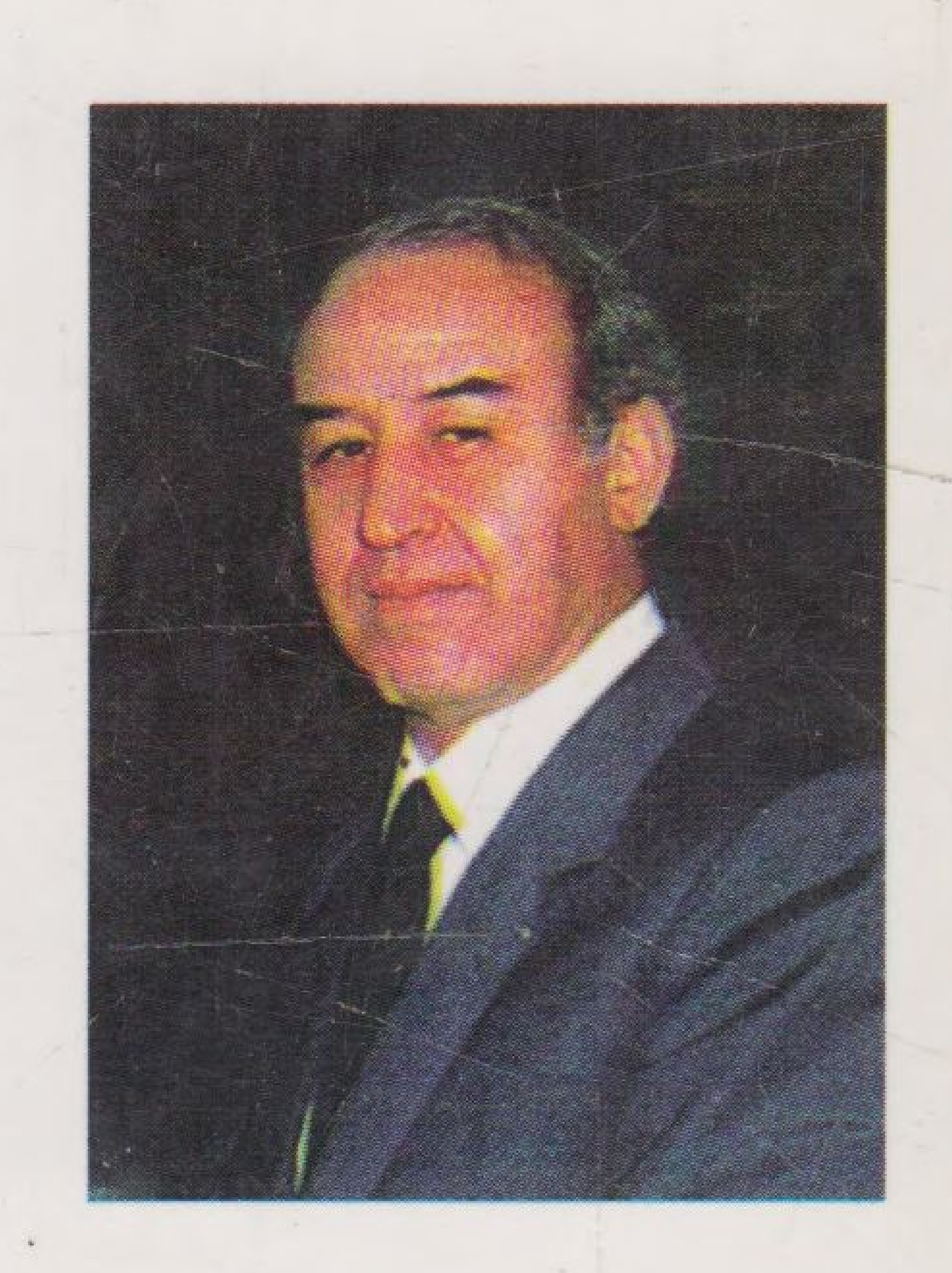
وبعد صمتٍ قصير قال جعفرٌ:

- أريدُك أن تعرفَ أنــه إذا حدث شيءٌ من هذا في المستقبل - لا قدَّر الله - فلا تتردَّدْ في التَّضحية . . . وسأكونُ فخورًا بك!

فابتسَمَ الأبُ وقال :

- أعْرِفُ . . . فأنتَ ابْنِي . . !

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء [illegible] المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر [illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية [illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتبة العبيكان

